"حروب ذوي القربى ايلماً ومعارض وروايات" في مسرح المدينة

ذاكرة ظل... غابة ضوء ونار

انطلق مسرح المدينة في الحمراء، بيروت، وفي هنغار (امم)، الغبيري – حارة حريك نشاط «حروب ذوي القربى هنا وهناك... ايلماً وروايات ومعارض» الذي تنظمه «امم للتوثيق والابحاث» بالتعاون مع مؤسسة هاينريتش بول، معهد غوته، المعهد الفرنسي للشرق الادنى، قسم الثقافة والعمل الثقافي للسفارة الفرنسية، ميديكو انترناشيونال، مسرح المدينة والموسم. يتضمن النشاط عروض افلام عن الحرب، الى معرضين وندوتين. تمتد الانشطة على مدى ستة ايام بين ٢٠ و٢٥ ايلول (سبتمبر) في مسرح المدينة حيث تستضاف عروض الافلام، وفي هنغار امم يقام معرض «سياحة بين جدران بيروت».

النشاط كان افتتح بمعرض «الحرب ملء البال – اقليم كوسوفو، بعيون اطفاله» ويقوم المعرض على رسوم اطفال من مخيمات اللاجئين الكوسوفيين في برلين ومقدونيا. فقد قام فريق من الناشطين الالمان بدعوة الاطفال الى التعبير بالريشة واللون عما عاشوه خلال الاسابيع والاشهر التي سبقت وصولهم الى المخيمات. مع انتهاء الحرب طورت المبادرة فوزعت على عدد من الاطفال في مدارس كوسوفو كاميرات احادية الاستعمال وطلب من الاطفال المعنيين تصوير مشاهد من حياتهم اليومية. كانت النتيجة اربعمئة رسم وألفاً وسبعمئة صورة. تظاهرة الرسم والصورة من نوع الفن التجريبي العفوي والتلقائي، الذي يندرج في اطار الحملة ضد الحرب، والمبادرة يقوم بها أطفال برسائل مباشرة وعفوية، لا تسلك الدروب الملتوية ولا الرموز، فقط دلالات مباشرة على أشياء العنف. والنتيجة واضحة وهي مخاطبة الوجدان العالمي في لحظات مصورة فوتوغرافياً، وبالرسم والكلمات لوقف العنف وانهاء الخلافات بين شعوب العالم، وتعزيز بيئة لا يضغط عليها بثقافة العنف.

بعدٌ رمزي

عالم لواقع افتراضي جدلاً يقوم على حطام صناعة الحرب المتخمة بالارهاب والمخربة للحياة، والرسوم فكرة عن بيئة ملونة مناوئة للعنف المقبول اجتماعياً من افرقاء القتال. يأخذ الحدث الفني والثقافي بعداً رمزياً، فهو يترجم رؤية الجيل اللاجىء المعلق بين هواء الطفولة، وهواء المنفى المعرض للانفجار، ويختبر الاطفال مواضعهم الطبيعية، في ثورة انقلاب على الواقع. ليس مجرد انقلاب تقني، وانما رؤية بايضاحات الطفولة البريئة والملتبسة في آن في علاقتها بالاشياء، والبيوت، وشاشات الاخبار، والمدن، والجسور، والطبيعة وممرات الدراجات الهوائية، وفائض كبير من العواطف والحساسية، التي تتحمل وزر الاخطار، التي تهدد الناس ببلاغات الحروب السياسية، والتي تجري بسرعة الذاكرة المغسولة كغابة ضوء ونار. بمحاذاة العروض السينمائية، ومعرض الحرب «ملء البال»، يقام في هنغار (امم) حارة حريك معرض «مروا من هنا»، والى الاول من تشرين الاول (اكتوبر) المقبل. التأليف البصري والنصوص لفادي توفيق، والتصوير لحسام مشيمش وسونا هوغبول، اما الموضوع فهو جدران بيروت المكتظة بالشعارات والملصقات، التي صوّرها توفيق بين ٢٠٠٢ و٢٠٠٥، ويجعل منها فلسفة لرفض ثقافة العنف، وليس فقط ثقافة الاغتيالات.

«ذات يوم اهتدى اللبنانيون الى ان تسويد الجدران بالشعارات والملصقات من اسرع تقنيات التراسل وأقلها كلفة وأعمها جمهوراً. يستقيم هذا التشبيه، تشبيه التعبيرات السياسية وغير السياسية، على الجدران بالرسائل في عين العابر، وتبين ان هذه الشعارات ليست عفوية بمقدار ما توحي به. وتصير في ذاتها قيداً لحرية أوسع، اذ يكفي رجل واحد في شارع او ناحية لتعبث يده في مكان وتحوله الى ملكية هذا الحزب او الجمعية وتتناسخ الصور والشعارات على الجدران، وتخبز خبزها في أعين الناس وبلا مبالاة، غابة من الضوء على فراغ المكان من ذلك الحزب او الاسم، او تلك الجمعية. ثم ان الاغتيال والعنف ليسا في الحيز السياسي وحده، وانما ينظر اليهما في الحيز الثقافي، وترى لو انقلبت الامور في الثلاثين سنة الماضية، اما كان احدهم ليتباهى باعلان المسؤولية عن الحقيقة، حقيقة مسؤولية الحرب وسلوكيات العنف والقتل والاغتيالات؟

الجدران تشير الى ما وصلت اليه احوال المدينة من هذيانات سياسية وثنائيات قاتلة (قبل الخروج السوري)، وينظر اليها على ان لا جدار يصلح عينة نموذجية على توزع اللبنانيين لسياسات ومواقف وأفكار.

الظاهرة قديمة تعود الى العام ١٩٥٨، وصلتها بالسياسة متقطعة، وعنوانها «الاستيلاء على الجدران»، ولم يكن هناك في زمن الحزب الواحد، والقائد الواحد من يجرؤ على الاعتراض، والغرافي في المعرض مثير، ولاذع وسليط اللسان، وفيه حيز واسع للقول والرأي والسخرية والنقد، وفي كل الاتجاهات والمسارات، مع ما يعكسه مكان العرض من ايماءات رمزية وايحاءات عن امكنة كانت حتى الأمس تتقلص فيها فضاءات الحرية، ويتزايد القمع باسم الدين والحزب والاجتماع المحافظ.

الشعارات تشير بالاصبع والعين الى مجتمع لبناني كان على مدار ٣٠ عاماً أقل تديناً وتسامحاً وأكثر طائفية وتعصباً، وأقل وحدة وأكثر تفككاً، وأقل انفتاحاً وتقبلاً للآخر، وأكثر فقراً ووهناً، وما أسميناه الوطن تحول الى ثكنة عسكرية واحياء طائفية وشعارات قبلية. لم يعرف اللبنانيون نظاماً مشتركاً من الافكار، وفي اختيار قادتهم ونظمهم الاجتماعية والحزبية، ولم يعرفوا ارساء قواعد لأبسط حقوق الانسان، والتنقل من شعار الى آخر، ومن مكان الى آخر يشير الى ما يشبه هذيانات قاتلة، فتقع العين في التجريد والسريالية لعالم من النظم الفكرية اكثر عنفاً من الواقع، من ذلك الذي يختفي خلف الكلام، وخلف الشعار من اول الشارع الى آخره. اي أمل ورجاء من تلك الجدران السوداء. ليست سوى آمال استثنائية لمعرض يمكن ان يستقبل كل يوم عشرات الصور الجديدة (بعد الخروج السوري) على نحو ما يعمل عليه فادي توفيق في بلد ما زال يحرس انقساماته الطائفية والعرقية والمناطقية. لكن في الامكان تطوير حركة الديمقراطية وجذب الجمهور الذي احتشد في المكان وما يحتضنه الموزاييك اللبناني فائق الوصف من التعددية والتنوع الفكري ما يسمح بالتصويب بايجابية نحو مجتمع ليبرالي يساهم في بناء وعي ثقافي بذاكرات ناشطة، لا تجعل الايام المقبلة ظلاً لأيام اخرى سوداء تذكّر بعنف القرون الوسطى!■

يقظان التقي

الشعارات فوق الجدران تشير الى مجتمع لبناني كان على مدار ٣٠ عاماً أقل وحدة وأكثر تفككاً وفقراً ووهناً...